افتتاح عصر « دبلوماسية الذرة » اقليميا

ان ابرز ما اسفرت عنه حرب اكتوبر ، هو انجازات القوات المسلحة العربية في ساحات القتال ، وبالذات ما انجزته القوات المسلحة المصرية على جبهة القناة . لاول مرة في تاريخ النزاع ، ثبت لاسرائيل انها لا تملك التفوق العسكري المطلق . كانت اسرائيل قد ابرزت تفوقا عسكريا في كل الحروب السابقة ، وكان الخط البياني يشير الى ان هذا التفوق يزداد بروزا ، حربا بعد اخرى . كان التفوق العسكري المطلق هو « عنصر الردع الحاسم » الذي كانت تملكه اسرائيل ، في غيبة تحقيق تطلعها الى « حدود آمنة ومعترف بها » ، وازاء عالم عربي يحيط بها ويناصبها العداء المستحكم . وهو وحده العنصر الكفيل بتعويض اوجه ضعفها ، في وجه الكثرة العربية ، مساحة وتعدادا وقدرة على حشد امكانيات لا تحصى .

وقد نجحت اسرائيل بعد حرب ١٩٦٧ في اشاعة الانطباع بأن تفوقها العسكري هو وحده المقرر لمجريات النزاع ، وان العنصر العسكري هو وحده المعيار الذي يتعين قياس قوة الاطراف المتصارعة بمقتضاه .

وهذا بطبيعة الحال يخالف القاعدة البديهية ان موازين القوى بين اطراف متنازعة هي دائما محصلة عوامل عديدة ، منها العامل السياسي ، والاقتصادي ، والاجتماعي والديموجرافي والايديولوجي ، والقدرة على تزويد القوة الذاتية بدعم خارجي ، الخ .. فضلا عن العامل العسكري . ولكن الحروب الحديثة التي تتخذ في العادة شكل الحروب المباغتة ، السريعة والمفاجئة ، تبدو وكأنما في قدرتها مخالفة هذه القاعدة ، وذلك بأن تكسب العامل العسكري المحض ، اهمية بالغة على حساب العوامل الاخرى ، خاصة لو اتسم احد الاطراف المتحاربة بتفوق ملحوظ على خصومه في القدرة على استخدام الاسلحة الحديثة المعقدة الاستعمال .

استغلت اسرائيل هذه الخاصية لتشيع في اعقاب حرب ١٩٦٧ الاعتقاد بأن « القوة العربية » مردودة الى حجم هزيمة العرب عسكريا ، مع اهمال كل عامل آخر ، وان « القوة الاسرائيلية » هي في المقابل بضخامة حجم انتصارها العسكري ، ايضا مع اهمال كل عامل آخر . وكان ذلك قمة ما يلبي مقتضيات الامن الاسرائيلي ، فضلا عن تكريس المشروع الصهيوني ، وتحقيق اهدافه في التوسع .

الا أن القوات المسلحة العربية قد أجادت هي الاخرى في حرب اكتوبر استخدام عنصر المفاجأة والمباغتة . وبفضل ذلك استطاعت القوات المسلحة المصرية ان تحقق بنجاح خارق عبور القناة واقتحام خط بارليف . وكان ذلك في حد ذاته ضربة قاضية لا تعوض للتفوق العسكري الاسرائيلي المطلق ، ايا كانت انجازات اسرائيل التالية في الحرب ، او في اية حرب قادمة .

لقد فقدت اسرائيل الى غير رجعة ميزة عدم التكافؤ المطلق في القوة العسكرية للاطراف المتحاربة . وفقد « العامل العسكري » صفته كعنصر حاسم في تقرير مجريات المواجهة . وبرز عامل آخر ليقوم بدور مؤثر في تطور الاحداث بعد ذلك ، هو « العامل الاقتصادي » ، اي قضية النفط التي جذبت اهتمام العالم الغربي واميركا بوجه خاص ، وكانت عنصرا بارزا في حفز كيسنجر على التصدي للازمة بدبلوماسيته النشطة . وضغط « ازمة الطاقة » ، اي قدرة العرب على الحد من ضخ النفط وحظر تصديره ، ليس بالعامل الذي تملك اسرائيل السيطرة عليه .